العرب
الأربعاء 2021/04/21
السنة 43 العدد 12037

هل تنقذنا «الديستوبيا» من المستقبل الذي تتنبأ به؟

«أدب ما بعد الثورات».. ظاهرة عربية ولدت في واقع متهالك

يحيل أدب "الديستوبيا" الذي يمثل في العمق "نزالا سرديا" في مواجهة واقع مُحْبط إلى عالم مقبل يسكنه الخراب وتهيمن عليه العتمة وتموت فيه الإنسانيةَ. عالم يقع فيه المحاربون من أجل بناء ما هو أفضل صرعى قوى مريبة، بينما تتوغل أقدام من تعوزهم إرادة التصدي والمواجهة في وَحَل العجز واليأس والاستسلام، مرسخين الخراب وكأنه حتمي، فكيف قارب الأدب العربي هذا الواقع؟

زهور السايح

الرباط – يرى غالبية النقاد أن أدب "الديستوبيا" استطاع أن يتأسس كنوع أدبي خرج متكامل الأركان من رواية "عالم جديد شجاع" (1932) للكاتب البريطاني ألدوس ليونارد هكسلي (1894 – 1963)، ومن رواية "1984" للصحافي والروائي البريطاني جورج أورويل (1903 – 1950)، بالضبط تماما كما خرج جنس القصة القصيرة مكتملا من قصة "المعطف" للأديب الروسي نيكولاي غوغول.

> الروايات «الديستوبية» العربية تتنبأ بمصير سوداوي يلف خلاله الفساد والخبث والأوبئة وجه المدينة العربية

بدأ "أدب الديستوبيا" في الانتشار مع الثورة الصناعية واستفحال الفوارق الاجتماعية، وبعد الحربين العالميتين وما صاحبهما وما كان لهما من تداعيات كارثية على جميع المستويات تجلت على مستوى الإبداع الأدبي في بروز تيار تشاؤمي عدمي قاده الأديب الروسي يفغيني زامياتين بروايته "نحن" (1926) التي أفرغ فيها استياءه ومرارته من مآل الثورة الروسية، حيث صور مستقبل عالم لا خصوصية لمن يعيشون فيه، ما داموا محاطين بالزجاج من كل جانب، خاضعين بيسر وطواعية لرقابة النظام الحاكم، مفتقدين لما يحدد هوياتهم كبشر، محرومين حتى من التسمية، إذ يتم التعامل معهم جميعا كأرقام ليس إلا.

ويشير بعض الدارسين لهذا النوع الأدبي إلى ما كان لرواية "نحن" من تأثير على رواية أورويل "1984" التي صدرت سنة 1949، وما كان أيضا قبلها من دور فاعل لرواية الكاتب التشيكي فرانس كافكا "المحاكمة" (1925) في دعم انطلاقة هذا التيار.

وبتتبع العناوين الأدبية المنتجة في إطار هذا النوع، يتبين أن جنس الرواية يشغل الجزء الأكبر، ويمتد عبرها إلى الأفلام وأيضا إلى الألعاب الإلكترونية.

الخيال المتشائم

تصر غالبية الكتابات التي قاربت هذا النوع الأدبي على ضرورة عدم خلطه بما يسمى بأدب "نهاية العالم" الذي يتناول كارثة بعينها قد تكون طبيعية أو بيولوجية أو نووية، في وقت ينصب فيه تركيز "الديستوبيا" ضمن كل هذه الأهوال على نهاية الإنسانية.

وتكشف "الديستوبيا" عن الوجه الآخر للتخييل الأدبي حين يتنبأ بمآسي مدينة منهارة، بدءا مما قد يخدش ظاهر صورتها من قبح معماري مرورا بما قد ينخر نظامها من استبداد وظلم وفوضى وتدهور تام للقيم، وصولا إلى العدمية وانتفاء إنسانية الإنسان.

ولا يملك صانع السرد إزاء كل ذلك إلا أن يرسل صرخات تذمر واستغاثة من حاضر متماد في قساوته، ويطرق أجراس الإنذار من قادم كارثي أكثر إيلاما ورعبا.

وبحسب النقاد، يأخذ الرعب داخل النص الأدبي "الديستوبي" لونه من مسبباته التي قد تتمثل إما في "حروب نووية، أو انفجار ديموغرافي، أو استنزاف للطبيعة، أو تحول ظاهرة الفساد إلى مؤسسة، أو الإجهاز على حرية التعبير، أو في انهيار سياسي بسبب اكتساح الشعوبية للحياة السياسية أو غيرها من الظواهر".

ومن هذه الزاوية تبرز "الديستوبيا" الكيفية التي يتحول بها الخيال في الأدب إلى نذير شؤم ومثير للمخاوف، وكيف به يتأرجح بين الحلم المستحيل بـ"المدينة الفاضلة" والواقع المثخن بالجروح والمفاسد، الآيل إلى حتفه في حكم المجاز والحقيقة.

كما تميط اللثام عن الكيفية التي تغوص من خلالها شخصيات البناء الحكائي في أعماق مخاوف لا حصر لها من مستقبل قاتم، يتأسس في الأصل على واقع مرير يحيطه الإحباط في غياب التفاؤل، ولا تملك غير الوقوف عاجزة أمام تغيرات قد تحيل المستقبل إلى ماض تَخَلّفَ عن إدراك موقعه الحقيقي من التحولات المفترض أن تكون منقذة للأنا والآخر، وتسقط في قلب عالم على شفير الهاوية.

وفي المحصلة يبدي هذا النوع من الأدب الذي نجح في التكهن باستفحال معضلات شتى كالتلوث والفقر والانهيار المجتمعي وسيطرة الأنظمة الشمولية وغيرها، حالة من العجز عن مقارعة شروط الواقع، والاكتفاء بدل ذلك بإفراغ تنبؤات سوداوية عن مآله مستقبلا واستحالة أو عسر تجاوز حتمية هذا المصير.

ولعل العجز عن إحداث تغيير في الواقع وإيجاد مخارج حاسمة مستدامة لمآزقه والإخفاق في استيعاب شروط المستقبل الآمن هو ما يفسر هذا المهرب التخييلي الموغل في التشاؤم.

وهو بالتالي ما يعزز ربط هذا التوجه، تخييلا وقراءة، بأوضاع مستعصية قد تكون سياسية أو اقتصادية أو صحية أو هي معا، كما هو الأمر اليوم في أكثر من منطقة في العالم مع جائحة كورونا وتداعياتها السلبية على مختلف القطاعات.

ومما يزيد من فيض هذا التوجه في الوقت الحالي بحسب الكثير من النقاد "تعاظم تكنولوجيا المراقبة والتقاط المعطيات" والوعي المتزايد بالإمكانات التي تتيحها هذه التكنولوجيا لانتهاك الخصوصية والتأثير في الميول والمواقف في مجالات شتى أقربها الاقتصاد والسياسة، يوازيها وعي مماثل بتنامي المخاطر البيئية والبيولوجية، إلى جانب اتساع مجال الانتشار السريع للمعلومة الصحيحة والزائفة على حد سواء، ومن جهة أخرى الميل الذي لا يمكن إنكاره إلى التمجيد والثقة في المعطيات العلمية، وهي عناصر تشكل المدد العلمي لإغناء المتخيل السردي للديستوبيا.

بين خيال مغرق في التشاؤم يحتكم إلى الاحتمالات المقبولة علميا، وآخر بقصدية أو بدُونِها، يتخطى كل ذلك ليحلق بعيدا خارجَ كل الضوابط، توجد مسافة فاصلة بين الحقيقة الممكنة والعجائبي الخارق. ينسج "أدب الديستوبيا" جانبا من سردياته بالاستناد إلى الخيال العلمي، الممزوج بكثير من الظلال القاتمة للتنبؤ بعالم قادم يحكمه الشر ويسوده الخراب وتنتفي فيه معاني الإنسانية والفضيلة.

خيال متشائم وشخصيات مشوهة (لوحة للفنان باسم دحدوح)

«الديستوبيا» العربية

يعتبر بعض الدارسين أن ازدياد عدد الروايات العربية الديستوبية في الآونة الأخيرة يفيد بأن هذا النوع الأدبي الذي ألحق به عربيا توصيف "أدب ما بعد الثورات"، اقترب من أن يكون ظاهرة عربية بامتياز، يحفزها من قلب المعاناة البحث عن جواب لسؤال وجودي مقلق وهو "ماذا بعد؟".

والإجماع ثابت لدى النقاد على أن جملة من أزمات وإحباطات الواقع العربي على أكثر من صعيد، وما صنعته من تحولات بنيوية في التركيبة السوسيو – ثقافية هي ما كان وراء تنامي حجم الكتابة في هذا النوع مدفوعة بخلفية تاريخية لا خلاف حول ما تتسم به من صعوبات شديدة التعقيد. وهي صعوبات لا تكتفي بما هو من قلب دائرة رقعة الوطن العربي وهواجسه آنا واستقبالا، بل تشمل أيضا في ظل عولمة المآسي والصفعات ما يطال باقي بلدان العالم وما تعصف به الرياح في كل الشطآن والمرافئ وما يتدافع نحوها وبينها من زوابع.

يؤكد النقاد أنه إذا كان القرن العشرون هو "العصر الذهبي لأدب الديستوبيا، فإن القرن الحادي والعشرين هو العصر الذهبي للديستوبيا الحقيقية المتجسدة على أرض الواقع، ديستوبيا الدول الفاسدة، ديستوبيا الحرب والدمار" والأوبئة المستعصية وما يترافق معها من تباطؤ أو نكوص اقتصادي. وهو وضع لم يعد بالدليل القطعي يستثني أحدا لأن المحنة باتت عالمية.

وتتزاحم الروايات العربية "الديستوبية" التي تلعن في العمق شروط واقع قائم وتتنبأ بمصير أكثر سوداوية يلف خلاله الفساد والخبث والأوبئة وجه المدينة العربية ويكبل سكانها في قلب مستقبل مقلق محفوف بالخوف من المرض والقمع والتنكيل والنزعات المادية المجنونة وغيرها.

ويمكن في هذا الصدد، مثالا لا حصرا، استحضار رواية "حرب الكلب الثانية" للأردني من أصل فلسطيني إبراهيم نصرالله، و"اللجنة" للروائي المصري صنع الله إبراهيم، ورواية "وليمة لأعشاب البحر" للروائي السوري حيدر حيدر، ورواية "إيبولا 76" للطبيب والروائي السوداني أمير تاج السر، ورواية "يوتوبيا" التي تندرج ضمن نوع "الديستوبيا" بالرغم مما يوحي به عنوانها، للطبيب والروائي المصري الراحل أحمد خالد توفيق عراب أدب الرعب عربيا، وأيضا رواية "ذاكرة الماء.. محنة الجنون العاري" للروائي الجزائري واسيني الأعرج، وأيضا روايته "2084 حكاية العربي الأخير" التي تستقي نسغها الديستوبي من رواية "1984" لأورويل والتي كانت هي الأخرى تحمل في البدء عنوان "آخر رجل في أوروبا".

غير أن ما يميز الرواية "الديستوبية" العربية، والتي لا يزيد عمرها عن عقدين، هي أنها لا ترمي بنفسها كلية في أحضان نظيرتها الغربية، ولا تحلق كثيرا في مراتع الخيال العلمي المجازف، كما أنها لا تطل على قارئها بقصد الترفيه، وإنما تتأسس، بحسب قراءات تحليلية، على "نوع من الالتزام بالواقع السياسي والاجتماعي. وتحذر من مغبة استمراره وديمومة تَرَدِّيه".

وتتوارد عند مقاربة الأعمال المصنفة ضمن هذا النوع الأدبي أسئلة متعددة، لعل أقربها البحث في مدى ما يملكه تنبؤ النص السردي بمستقبل فاجع من قوة على منح الإنذار الكافي ليتم استدراك الأمور قبل أن تؤول إلى الأسوأ، وحيز واقعية ومصداقية هذه التنبؤات، وكذا القيمة الأدبية النوعية التي تملكها هذه الأعمال أو تبشر بها ضمنيا، خاصة على مستوى المشهد العربي.

أسئلة كهذه وغيرها كثير تفرض بالدرجة الأولى أبحاثا وقراءات محايثة للنصوص الروائية، وحري بها من هذه الزاوية أن تثير شهية النقاد وأيضا الباحثين على مستوى الجامعات.

في خطوة متأخرة.. هوليوود تفتح أبوابها لذوي الإعاقات

لوس أنجلس – تضم ترشيحات جوائز الأوسكار هذا العام أعمالا عدة تتمحور حول ذوي الإعاقات، في خطوة حاسمة نحو تعزيز تمثيل هذه الفئة في هوليوود، غير أن خبراء في قطاع السينما يؤكدون ضرورة بذل جهود أكبر في هذا المجال.

ويقول بول راسي المرشح لجائزة أوسكار كأفضل ممثل بدور ثانوي عن فيلم "ساوند أوف ميتال" الذي يتناول قصة عازف درامز يفقد السمع، إن استوديوهات هوليوود "لم تقم بعمل جيد في السابق، لكنهم يعلمون ذلك ونحن هنا لنخبرهم بالأمر".

ويعتبر الممثل المولود لوالدين أصمّين والذي عانى اضطرابات في السمع، أنه "واحد من الأشخاص الذين يجب أن يكونوا في المقدمة لمنع تراجع الزخم في هذه الأعمال".

ويوضح "علينا تذكيرهم بجميع الفنانين الصمّ والمعوقين الموجودين لدينا، وجميع العباقرة الموجودين هنا".

ويبدو الحذر مبررا خصوصا لكونها ليست المرة الأولى التي يحاول فيها قطاع السينما تحقيق تقدم في الموضوع قبل العودة إلى عاداته القديمة.

ففي 1948 فازت جاين ويمان وهي ممثلة لا تعاني اضطرابات في السمع، بجائزة أوسكار عن دورها كامرأة صمّاء في "جوني بيليندا". لكن راسي يرى أن إسناد هذا الدور إليها وليس إلى شخص يعاني فعلا إعاقات سمعية كان خيارا غير موفق. كذلك سجلت هوليوود تقدما كبيرا سنة 1987 مع منح جائزة أوسكار أفضل ممثلة إلى مارلي ماتلين، وهي امرأة صمّاء، عن دورها في فيلم "تشيلدرن أوف إيه ليسر غاد".

غير أن الجوائز التي تسند للفنانين من ذوي الإعاقة لا تزال قليلة جدا مقارنة مع التقدم المسجل على صعيد تمثيل الأقليات الإثنية أو المثليين على الشاشة الكبيرة.

«ساوند أوف ميتال» فيلم عن عازف يفقد السمع

ويقول دوغ رولاند مخرج فيلم "فيلينغ ثرو" القصير المرشح هذه السنة للأوسكار إن "المعوقين غالبا ما يكونون في المرتبة الأخيرة بين هذه الفئات المهمشة".

ويوضح المخرج الذي لا يعاني إعاقات جسدية أن فيلمه مستوحى من لقائه مع رجل أصمّ وضرير كان يحتاج للمساعدة في اجتياز طريق في نيويورك.

واستعان دوغ رولاند في فيلم "فيلينغ ثرو" بالممثل روبرت تارانغو الذي أصبح أول شخص أصمّ وأعمى يؤدي دورا رئيسيا في فيلم. ومن خلال هذا الفيلم القصير الذي حاز دعم مارلي ماتلين كمنتجة منفذة، يرغب المخرج في إسماع صوت ذوي الإعاقات.

غير أن هذا الكفاح دونه عقبات كبيرة في قطاع السينما حيث لا تزال الأفكار النمطية "متجذرة بعمق" من دون أن يكون الأشخاص على دراية بذلك في أغلب الأحيان، وفق دوغ رولاند.

ويقول إن ذوي الإعاقات غالبا ما يُنظر إليهم بنظرة "دونية"، حتى كما لو أنهم "أشخاص غير مكتملين".

ويؤكد راسي أن "الناس يخافون مما لا يعرفونه أو يشعرون بأنهم مهددون"، مضيفا "الصمم إعاقة غير مرئية، إذ لا يشي أحد لأي كان بأنه أصم"، بحسب الممثل.

وبسبب النقص في التجهيزات الملائمة يشكل النفاذ إلى مواقع التصوير مهمة مستحيلة لبعض الفنانين ذوي الإعاقات الحركية أو البصرية.

وقد وجّه نجوم في هوليوود بينهم إيمي بولر وناومي هاريس رسالة مفتوحة إلى شركات الإنتاج السينمائي تحثهم على الاستعانة بصورة طارئة بأخصائيين في التعامل مع المعوقين لإزالة هذه العقبات.

ولمحاولة تغيير الأوضاع أطلق الممثل نيك نوفيكي سنة 2013 جائزة سينمائية تشترط أن يكون عضو واحد على الأقل في الفريق الفني أو طاقم الممثلين من ذوي الإعاقات.

ويقول نوفيكي "عندما بدأت في ذلك كنا نعاني حقا سوء تمثيل أكثر بكثير مما هو الوضع حاليا". وكان الممثل الذي يعاني شكلا من أشكال التقزّم قد سئم من إسناد صنّاع الأفلام إليه الأدوار المرتبطة حصرا بقصر قامته.

ومن الأعمال المرشحة أيضا هذه السنة لجوائز الأوسكار، فيلم "كريب كامب" الوثائقي الذي أنتجته شركة أسسها باراك وميشال أوباما. وهو يتناول إقامة مخيم للعطلات للشباب المعوقين في سبعينات القرن العشرين، والدور الحاسم الذي أداه ذلك في الدفاع عن حقوق ذوي الإعاقات في الولايات المتحدة.

> الجوائز التي تسند للفنانين من ذوي الإعاقة قليلة جدا مقارنة مع التقدم المسجل على صعيد تمثيل الأقليات الأخرى

ويؤكد نوفيكي أن "هذا من أجمل الأفلام التي أعرفها وأكثرها نبذاً للإقصاء"، مشيدا بعمل مساعد المخرج جيمس لوبريشت وهو شخص مقعد.

ويقول إن عدد ذوي الإعاقات يُقدّر بمئات الملايين حول العالم، ما يجعلهم "الأقلية الأكبر"، داعيا إلى منح أفراد هذه الفئة مكانتها الصحيحة في الأفلام.